الطاغية.. والطغيان

سعيد عبدالفتاح عاشور*

* حصل على دكتوراة في تاريخ العصور الوسطى مع مرتبة الشرف الاولى من جامعة القاهرة عام ١٩٥٤م.
يعمل أستاذا بقسم التاريخ بجامعة القاهرة .

الملخص

إن ظاهرة الطغيان من الظواهر القديمة في المجتمعات البشرية. وترتبط هذه الظاهرة بالرغبة في التسلط وبالنزعة الاستبدادية عند فرد يستغل الظروف لفرض سيطرته على مجتمع أو دولة، معتمدا على بطانة من كلاب الحراسة تورط أفرادها معه في سياسته وربطوا مصيرهم بمصيره.

ويتصف الطاغية المستبد بالانفراد برأيه، فلا رأي إلا رأيه، ولا كلمة إلا كلمته، وان تظاهر أحيانا باقامة هيئة إلى جانبه تتسمى باسم أحد المجالس الاستشارية، لا حول ولا قوة لافرادها إلا إقرار ما يأمر به سيدهم الأعلى. هذا إلى أن إمعانه في التطرف يجعله يخشى على حياته من غضب الغاضبين فيوجه جهوده نحو مراقبة أفراد شعبه في حركاتهم وسكناتهم، بحيث لا يأمن أحدهم على نفسه. أما بطانته فيرون بقاءهم في بقائه، فيبالغون في التشكك فيمن حولهم، بل في أنفسهم بعضهم بعضا.

وكثيرا ما يحاول الحاكم المستبد أو الطاغية بناء مجد موهوم لنفسه فيغامر في حروب ضد جيرانه، لاهدف لها إلا تحقيق مطامعه وإرضاء نزعته العدوانية وإشباع ميوله الدموية. وتحت تأثير هذه العوامل حاول حاكم العراق إقامة امبراطورية لنفسه في إقليم الخليج، تضم البلاد الواقعة على شاطئيه الشرقي الفارسي والغربي العربي، وهي البلاد التي تنتج النفط بكميات وفيرة سال لها لعاب الحاكم العراقي. وبدلا من أن يوجه جهوده نحو العناية باستثمار الموارد الطبيعية الضخمة التي تتوافر لبلاده، ما بين ثروة نباتية وحيوانية ونفطية، قام حاكم العراق بمحاولة فاشلة لغزو إيران، حتى إذا ما منى بالهزيمة أمام (الفرس) أدار ظهره لإيران متجها نحو الشاطىء العربي للخليج.

وهكذا قام الجيش العراقي بعدوان سافر على الكويت وشرق المملكة السعودية في صيف ١٩٩٠. ولكن صحوة الضمير العالمي ويقظة الوعي العربي لم تمكناه من تحقيق هدفه، رغم بعض الأصوات المنكرة التي انطلقت من وراء الستار، تعبر عن تطلعات شراذم من المنتفعين لتحقيق مكاسب مادية أو إقليمية.

ولم تلبث فلول القوات العراقية أن اضطرت إلى الانسحاب من أرض المملكة السعودية ومن أرض الكويت جميعا، بعد أن ارتكبت فيها الجرائم الخلقية والإنسانية ومن أعمال التخريب والإفساد ما لا يتفق وأبسط مبادىء الإسلام والعروبة.

جاء في قواميس اللغة «الطغيان: البغي والكفر، وكل شيء جاوز القدر فقد طغي. والطاغية: الجبار العنيد، الأحمق المستكبر، الظالم الذي لا يبالي ما أتى، يأكل الناس ويقهرهم»[1].

وفي المصطلح التاريخي والسياسي، الطاغية، حاكم مستبد، ينفرد برأيه، لا يخضع لقانون أو دستور، وإنما كلمته هي القانون، ورأيه الفردي هو الدستور، وإرادته هي النافذة، حتى ولو خالفت قواعد العرف والتقاليد، وبالتالي يكون حكمه مطلقا لا حدود له. وكان هذا شأن بعض الحكام منذ العصور القديمة. جاء في القرآن الكريم «اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل هل لك إلى أن تزكى[2]» أي اذهب إلى فرعون الطاغية الجبار الذي جاوز الحد في الظلم، وأعرض عليه أن يعود إلى طريق الحق ويتطهر من الذنوب والآثام.

والحاكم المستبد لا يعدم الوسائل التي يشدد بها قبضته على من تسلط عليهم. ويكون سلاحه الأول في ذلك الإرهاب والقتل وسفك الدماء، وتعذيب ضحاياه والتمثيل بأجسادهم. فهو دموي بطبعه، يتلذذ بقتل الأبرياء دون شفقة أو رحمة، لا يعرف للرحمة طعما أو معنى. ثم إنه في نفس الوقت يتصف بالجبن الشديد، يخشى على حياته من غضب الغاضبين وثورة الأعداء، ولذا يسرف في الحيطة على نفسه، ويبالغ في إقامة الحصون المشيدة والسراديب والمخابىء الخفية ليلوذ بها عندما تدور عليه الدوائر.

وهكذا ما من طاغية إلا وهو مصاب بازدواج الشخصية، فهو يظهر أمام الناس في صورة الوحش الكاسر مهدداً كل من يقف في سبيله بالقتل والبطش، في حين أنه في قرارة نفسه يرتعد خوفا ويعمل على الفلات من سوء المصير الذي يخشى حلوله به.

وتحت تأثير هذا الشعور يتشكك الحاكم الطاغية ـ أو المستبد ـ في جميع من حوله، فإذا ارتاب في أحدهم سارع إلى الخلاص منه دون سؤال أو محاكمة. وغالبا ما ينكل به بصورة علنية أمام جمع من الناس ليثير الذعر في قلوبهم، وبذلك يحقق لنفسه قدراً من الأمن والإطمئنان.

ويحيط بالطاغية عادة مجموعة من الأعوان الذين يتفقون معه في صفاته وخلقه. ولا يكاد الواحد من هؤلاء يرتبط بسيده حتى ينغمس معه في سوء فعله، ويزين له آثامه وشروره ليرضى نزعته الشريرة، وبذلك يحظى عنده. وعندما يدرك هؤلاء الأعوان أن بقاءهم مرتبط ببقاء سيدهم، وأنهم يعيشون تحت مظلته، فإنهم يزدادوا حرصا على حمايته والدفاع عن سياسته وعمله، لا إيمانا به وحبا له، وإنما حرصا على حياتهم وخوفا على أنفسهم. إنهم يدركون أن بقاءهم في بقائه، وذهابهم مرتبط بذهابه.

وقد قاوم الإسلام بشدة حكم الطغاة، ونهى عن البغي والطغيان قال تعالى: «ولا تطغوا فيحل عليكم غضبي[3]» ذلك أن الإسلام وضع قواعد للحكم السليم، على الحاكم أن يتمسك بها ويحرص على تطبيقها، ويتخذ منها دعامة يرتكز عليها في مباشرة مهام منصبه. ومن هذه القواعد ما يتمثل في قوله عز وجل «فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب

المتوكلين[٤]».

وفي هذه الآية الكريمة تجتمع أربعة أركان من دعائم الحكم الصالح، أمر الله عز وجل رسوله الكريم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بالتمسك بها والحرص على التحلي بها وتطبيقها في سياسته. أما هذه الأركان فهي:

أولا : الرحمة وتجنب الغلظة في معاملة المخالفين، حتى لو كانوا من الصحابة.
ثانيا : العفو عند المقدرة، وتجنب الأذى، بل طلب المغفرة من الله عز وجل للمخالفين.
ثالثا : التمسك بمبدأ المشاورة في جميع الأمور التي تواجه الحاكم، وتجنب الانفراد بالرأي.
رابعا : وبعد استيفاء الأركان الثلاثة السابقة يأتي العزم في ضوء القرار السليم، ويكون ذلك بالتوكل على الله والاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه.

والإسلام ـ كما هو معلوم ـ ليس مظهراً وإنما هو جوهر. فلا يكفي أن يتسمى أحدهم بأحد أسماء المسلمين لكي يكون مسلما، وإنما العبرة بالالتزام بروح الدين والتمسك بتعاليم الله عز وجل وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام. فإذا تخلى الحاكم عن المبادىء التي حددها الشرع، فإنه يكون مستبدا أو طاغية، وفي هذه الحالة لا طاعة له ولا تسامح معه.

وقد أخذ كثير من المفكرين بهذا الاتجاه منذ أقدم العصور. فأرسطو استنكر عدم وجود دستور يلتزم به الحاكم، وقال إن الحاكم المستبد الذي يتبع هواه ولا يلتزم بقانون أشبه بالطبيب الذي يعالج المرضى دون الوقوف على أسباب شكواهم وعللهم.

أما في غرب أوروبا في ظل المسيحية، فقد اعتبر المفكرون في العصور الوسطى الحكم وظيفة وأمانة، بمعنى أنه يتحتم على من ينهض بهذه الوظيفة أن يلتزم بواجبات معينة تقابل ما يقدمه له رعاياه من طاعة والتزامات مالية وغير مالية. وبعبارة أخرى فإن العلاقة بين الحاكم والمحكوم قامت في ظل مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة، فكل طرف له حق وعليه واجب[٥].

وقد عبر توما الأكويني عن هذا الاتجاه تعبيرا أكثر صراحة فقال «إن المملكة ليست ملكا للملك، وإنما الملك ملك للمملكة».

وفي تلك العصور، فرق حنا سالسبوري (١١١٥-١١٨٠) بين الملك أو الأمير الحاكم من ناحية، وبين الطاغية المستبد أو الدكتاتور من ناحية أخرى، فقال إن الأول له أصول وجذور وغالبا ما يتولى الحكم عن طريق الوراثة، في حين أن الثاني اغتصب الحكم وفرض نفسه عن طريق القوة والإرهاب على المجتمع، ولذا فإن الأول يحترم القانون ويخضع له في حين يتجاهله الثاني. ويوصى الفيلسوف الكبير حنا سالسبوري باستخدام السيف لمعاقبة الطاغية أو الحاكم المستبد، ويقدر في صراحة تامة أن قتل الطاغية ليس أمراً مسموحا به فحسب، بل إنه حق وعدالة[٦].

ولا أدل على أن الطغاة المستبدين احتلوا أسفل الدرك في الفكر السياسي على مر العصور، من أن دانتي أفرد لهم في الجحيم نهراً خاصا يغلي بالدماء ليعذبوا فيه. أما توما الاكويني، فقد أصر دائما ـ كما سبق أن أشرنا ـ على أن مقاومة الطاغية ليست فقط حقاً للمحكومين، بل إنها واجب

عليهم[٧].

وعلى الرغم من انتشار الآراء التي تنادي بالحرية والديمقراطية بعد الثورة الفرنسية الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر، إلا أن عالمنا المعاصر ـ وبخاصة العالمين الثاني والثالث ـ لم يسلم من ظاهرة الطغيان التي ما زالت بعض الشعوب تعاني من شرورها وآثامها. كل ما في الأمر هو أن هؤلاء الطغاة استغلوا وسائل الإعلام الحديثة للتستر تحت بعض الشعارات البراقة، فهم تارة يقدمون لشعوبهم العذاب والحرمان في وعاء من العبارات البراقة والكلمات الجذابة، وأخرى يشكلون مجالس من أذنابهم ودعاتهم ويضفون عليها ثوبا كاذبا من ثياب الشورى، وثالثة يضعون دساتير حافلة بالشعارات الرنانة. وليس من باب المصادفة أن أكثر الانظمة التي عاصرناها جنوحا نحو الطغيان والاستبداد هي أكثرها استخداما لألفاظ الديموقراطية، والشعبية، والجماهيرية.

والملاحظ أن هؤلاء الطغاة لا يرغبون مطلقا في تخطي حدود الدائرة التي يعيشون فيها، لأن تمسكهم بآرائهم وأفكارهم يجعلهم ينظرون إلى الأمور نظرة جامدة لا محيص عنها. وتحت تأثير الاستبداد الفكري لا يعبأ الطغاة في كثير من الحالات بما يحيط بهم من تطورات وتغيرات سياسية وغير سياسية، وإنما يعيش الواحد منهم داخل دائرة مغلقة بحيث لا يرى إلا الصورة التي يجب فعلا أن يراها. لقد أغمض بعض هؤلاء الطغاة أعينهم عن التطورات الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يمر بها عالم اليوم، وظنوا أن موجة الذعر والإرهاب التي أثاروها في محيطهم كفيلة بأن تحقق لهم مكاسب تضفي عليهم قدراً من المجد الموهوم. وفي هذا الاتجاه الخاطيء الذي ساروا فيه لم يفطنوا إلى أن الناس من حولهم لا يؤمنون بهم ولا يثقون في أقوالهم وأفعالهم، وأنه إذا وجد من شعوبهم من يصفق لهم فإنما تحت تأثير الذعر وخوفا من القتل وسوء العذاب.

ولا يعدم الطغاة عادة طريقة للتوسل بوسائل يبررون بها سوء أعمالهم، فهم في منطقتنا يتمسحون بالإسلام حينا وبالعروبة أحيانا، ويعملون دائما ـ أو يعمل لهم أذنابهم وبطانتهم ـ على تسخير التاريخ لتبرير سياستهم، فيشوهون الحقيقة التاريخية، ويقلبون الحق باطلا والباطل حقا، ويحملون التاريخ أكثر مما يحتمل، ليتخذوا منه دعامة وسنداً. وكما هي عادتهم يتسترون تحت بعض الشعارات البراقة لتنفيذ مخططهم، كأن ينادي بعضهم بمشروع «إعادة كتابة التاريخ» متظاهرين بأن هدفهم تنقية التاريخ مما لحق به من شوائب، وهم في باطن الأمر لا يستهدفون إلا تفسير التاريخ تفسيراً يتفق ونواياهم العدوانية.

وهكذا مضى بعض الطغاة يتخبطون في بحر لجيّ من الدماء والشذوذ النفسي والانحراف الفكري، ومن حولهم قلة من المستفيدين والمنتفعين يحمونهم ويزينون لهم الباطل. فإذا وجد الطاغية أنه في حاجة إلى مزيد من الدعم لجأ إلى سلاح الرشوة، فاستغل جزءاً من الأموال والثروات التي يبتزها من جيرانه تحت تأثير الخوف والرعب، في تقديم الرشاوي إلى من يرجو وقوفهم إلى جانبه من رجال الإعلام والفكر بل من رجال الحكم والسياسة. وتكون هذه الرشاوي في صورة جوائز وهمية أو هدايا، وبذلك يوهم الطاغية نفسه بأنه سيجد من يؤيده ويدعو له.

على أن التاريخ أثبت دائما أن الحاكم المستبد أو الطاغية لا بد وأن ينتهي أمره بالسقوط في الهاوية. فالأطماع التي لا تقف عند حد، والغرور الذي يعمي البصر، والتخبط نتيجة للانفراد بالرأي، والسلوك الدموي الذي يستثير مشاعر البشر... كل هذه الأمور تدفع السفينة إلى الارتطام بصخرة الصحوة والحق والضمير. فإذا سقط الطاغية أسرع أذنابه إلى محاولة الخلاص والنجاة بأنفسهم، منهم من ينتحر، ومنهم من يتخفى محاولا الفرار من مصير محتوم، ومنهم من يقع في قبضة العدالة ليلقى جزاء ما قدمت يداه... ولسان حالهم جميعا يردد «هلك عني سلطانيه[٨]».

هذا هو حكم التاريخ. وليت الطغاة يستفيدون من دروس التاريخ بدلا من محاولة تشويهه وتلوينه ليتخذوا منه أداة في خدمة سياستهم الآثمة. نعم، ليتهم يعون قول أحد الحكام السابقين ـ هو السلطان الظاهر بيبرس في القرن السابع الهجري، الثالث عشر للميلاد ـ «سماع التاريخ أعظم من التجارب[٩]».

ولعل أكبر شاهد على الطريقة التي يفكر بها الطغاة والأسلوب الذي يعملون به هو ما حدث في إقليم الخليج في العقدين الأخيرين. فالخليج ـ أو بحر فارس كما عرفه العرب وذكروه في مؤلفاتهم طوال العصور الوسطى ـ يمثل منطقة حدود فاصلة بين العرب على شاطئه الغربي، والفرس على شاطئه الشرقي. وقد اكتسب الخليج مكانة كبيرة في تلك العصور بوصفه أحد شرايين التجارة العالمية بين الشرق والغرب. وهكذا حتى ظهر النفط فاكسب إقليم الخليج أهمية بالغة بوصفه مصدرا للطاقة.

وعلى رأس الخليج يقع العراق، وهو قطر عربي أصيل، يعتز به العرب جميعا في مشارق الأرض ومغاربها، له تاريخه المجيد في بناء الأمة العربية وحضارتها. وقد أجمع علماء الجغرافية الإقتصادية على أن العراق من أغنى بلاد العالم وأوفرها ثروة، وهي ثروة متنوعة الأصول بين زراعية، وصناعية، ومعدنية وتجارية. فالماء المتدفق في نهري دجلة والفرات كفيل بأن يروي كل شبر في ذلك البلد المترامي الأطراف الذي تبلغ مساحته نحوا من مائة وسبعين ألف ميل مربعا (٤٣٥,٠٠٠ ك.م). ولو أحسن استغلال هذا الماء، وعكف الأهالي على زراعة الأرض بالاساليب التقنية الحديثة، بدلا من مجرد الاعتماد على محصول التمر، لتحول العراق بأكمله إلى بساط أخضر متنوع المحاصيل متباين الخيرات. وفي ذلك يقول العلامة ستامب إن هناك بلدين في العالم لو أحسن توجيههما وتنظيم العمل فيهما فإن أحدهما كفيل بأن يطعم قارة آسيا بأكملها والآخر كفيل بإطعام قارة افريقية بأكملها: البلد الأول هو العراق، والبلد الثاني سودان النيل[١٠].

ثم إن تنوع مناخ العراق بين البرودة الشديدة والحرارة الشديدة، وامتداده من الأقاليم المعتدلة الباردة شمالا إلى الأقاليم الدافئة الحارة جنوبا، يساعد على تنوع الحاصلات الزراعية فيه.

ومن ناحية أخرى، فإن شمال العراق يمتاز بمروجه الخضراء على مر العام، حتى لقد أطلق على بعض مدنه في الشمال «ذات الربيعين» وهذه المروج توفر مرعى طيبا لقطعان الماشية، مما يجعل من تلك البيئة مورداً لثروة حيوانية ضخمة، ما بين لحوم وجلود وأصواف وأوبار... وغيرها.

ولا شك في أن هذا الإنتاج الزراعي والحيواني المتنوع من الممكن أن يكون قاعدة ودعامة لإنتاج صناعي كبير، وخاصة ما يتعلق بصناعة النسيج والملابس القطنية والصوفية والكتانية، فضلا عن صناعة الجلود، وصناعة المعلبات والأغذية المحفوظة. وإذا كانت المشكلة الكبري التي تواجه كثيرا من دول العالم الصناعية اليوم هي مشكلة الوقود، فإن العراق غدا بعد اكتشاف النفط في جنوبه ـ فضلا عن شماله ـ من أغنى دول العالم وأكبرها في مخزون النفط، مما يشكل المورد الأول لدخل العراق. ويمكن أن يكون النفط قاعدة للعديد من الصناعات البتروكيميائية فضلا عن العديد من الصناعات القائمة على الانتاج الزراعي والحيواني كما سبق أن أوضحنا.

ولكن الشيء الذي يثير الحيرة هو أن حكومة العراق بدلا من أن توجه جهودها نحو الإفادة من هذه الإمكانات الطبيعية الضخمة، وتنظيم استغلالها وتوجيه الأيدي العاملة إليها... بدلا من ذلك اختارت أن توجه شعب العراق وجهة هدامة، لا ثمرة لها إلا إزهاق الأرواح وتخريب البلاد. ويأتي هذا الاتجاه الهدام إشباعا لطموح حاكم يريد أن يؤسس بنيانا على غير تقوى، فحشد كافة إمكانات بلده وشعبه للقيام بسلسلة من الحروب الفاشلة شنها على جيرانه متمسحاً بالعروبة حينا ومتعللا بالإسلام أحيانا.

وكان أن افتعل حاكم العراق حربا ضد إيران ـ الجارة الشرقية للعراق ـ فاقتحم أراضيها في محاولة منه لتطويق الخليج والهيمنة على شاطئيه الشرقي والغربي. وفي تلك الحرب حاول حاكم العراق أن يطمس شخصية إيران بوصفها عضوا في المجتمع الإسلامي، له أصوله وحضارته وتاريخه، فدعا لحربه ضد إيران بمزيج من العبارات الإنشائية التي تجمع بين النعرتين العنصرية والمذهبية، مما لا محل له في عالم متطور حديث ينشد المحبة والسلام ويسعى لدفن خلافات الماضي وأخطائه، فلا مكان لشعوبية، ولا موضع لتيارات مذهبية، فالرب واحد، والدين واحد، والمؤمنون إخوة، ورسول الإسلام (ص) نادى بأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. وإذا كان السلف قد وقع في أخطاء فإن على الخلف مداواة هذه الأخطاء. ها هو الله عز وجل يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام بأن ينادي أهل الكتاب إلى كلمة سواء بينهم وبين المسلمين[١١]، ألا يجدر بالمسلمين على تباين مذاهبهم أن يجتمعوا على كلمة سواء تحت مظلة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؟

ولكن بدلا من أن تنهض حكومة العراق بهذه الأمانة، إذا بها تزيد الخرق اتساعا فتنادي بأنها تحارب الفرس أعداء العرب، وبأنها تحارب المجوس أعداء الإسلام؟ وبذلك تستهدف أن تعيد عجلة التاريخ لتنبش أخطاء الماضي وتشعل نار الفتنة من جديد. هل نسي حكام العراق أن أولئك الذين كانوا مجوسا في غابر الزمان دخلوا في الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا وأنهم أسهموا في بناء حضارة الاسلام بل أسهموا في خدمة اللغة العربية والأدب العربي؟ ثم ليسمح لنا حكام العراق أن نسألهم ماذا كانت ديانة أهل العراق قبل الإسلام عندما كان الفرس مجوسا؟ وماذا كان يعبد أهل العراق عندما كان أهل فارس يعبدون النار؟ هل كانت عبادة الإله آنو والإله عشتار والإله أدد أفضل من عبادة النار؟؟ وهل ينتقص من شأن أهل شبه الجزيرة العربية اليوم أن أجدادهم قبل الإسلام عبدوا هبل ومناة واللات والعزى؟؟

وبعد أن ضحى بزهرة شباب بلده في حرب غير مجدية، استغرقت سنوات طويلة، استطاع حاكم العراق أن يوقف هذه الحرب ـ ولا نقول إنه استطاع أن ينتصر فيها مثلما يحلو له أن يوهم نفسه ويوهم شعبه ـ وتم ذلك باستخدام الأسلحة الكيميائية والبيولوجية المحرم استخدامها دوليا لأنها تتنافى مع أبسط مبادىء الرحمة والأخلاق. وعندئذ أدرك حاكم العراق أنه فشل في تنفيذ خطته التي استهدفت تطويق الخليج عن طريق شاطئه الشرقي، فليتجه إلى شاطئه الغربي عسى أن يحقق نصراً يمحو به آثار فشله في حربه ضد إيران. ولكي يمهد حاكم العراق لهذه الخطوة اختلق حكاية يتذرع بها في عدوانه على جيرانه ـ وهم في هذه المرة عرب مسلمون ـ فادعى أن دولتي الكويت والإمارات تسببتا في خفض سعر النفط في الاسواق العالمية، مما عاد بخسارة كبيرة على العراق.

ومهما تتعدد أسباب الهجوم العراقي على الكويت، ما بين اقتصادية، وسياسية، وشخصية فإن سبباً واحداً يبقى السبب الأول والرئيسي في تحريك ذلك العمل الغاشم. أما هذا السبب فهو شعور الحسد والحقد. ويشهد التاريخ منذ أقدم العصور على أن عامل الحسد كان المحرك الأول لكثير من الهجمات والغزوات، بمعنى أن الشعوب والدول المتجاورة كثيرا ما تعتريها مشاعر الحقد بين بعضها البعض، مثلها في ذلك مثل الأفراد. وقد حدث في القرن الثالث للميلاد أن تملك شعور الحسد والحقد جيران الإمبراطورية الرومانية ـ من قبائل الجرمان الرابضين على حدودها الشمالية ـ فتطلع كل منهم إلى انتزاع جزء من أراضيها لينعم بما كان ينعم به الرومان من أمن واستقرار وخيرات وحضارة وكان أن أطبقت شعوب الجرمان في حركة كاسحة على الإمبراطورية، وكأنهم جميعا على موعد، واستمرت حركتهم الهدامة بضعة قرون، حتى انتزع كل شعب من شعوب الجرمان بلدا أو إقليما استقر فيه مما مهد لسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦م أي في أواخر القرن الخامس للميلاد.

ولكن الشيء الذي يدعو إلى الانتباه هو أن هذه الشعوب التي أغارت على الامبراطورية بدافع الحسد والغيرة، كانت تشكو من الفقر وقلة الموارد والنضوب الحضاري، مما أثار عندها شعور الحسد لما كان ينعم به العالم الروماني من رقي وازدهار حضاري. أما جيوش العراق التي خرجت لغزو الكويت أخيرا، فقد خرجت من بلد غني يفيض بموارد الثروة، ويبلغ مخزونه من النفط أضعاف مخزون دولة الكويت. ولكن هكذا تشاء الظروف أن يتطلع المفرط في الغنى إلى ما لغيره، حتى ولو كان هذا الغير أقل منه ثراء. وما أشبه هذا الوضع بما جاء في القرآن الكريم عن الخصمين اللذين دخلا على داود عليه السلام ليشكو أحدهما زميله قائلا «إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب[١٢]».

فهل أذنبت دولة الكويت عندما مارست نشاطها في ظل اقتصاد حر، فانتعشت أوضاعها، في الوقت الذي أهمل أهل العراق موارد بلادهم وأهدرها الحكام في حروب لا طائل من ورائها، ولا هدف لها إلا تحقيق مجد شخصي لحاكم مستبد، مما عاد على البلاد بالخراب وعاد على أهل البلاد بالفناء؟

ليس ذنب الكويت أن حكومتها كانت أبعد نظراً، فاحتاطت للمستقبل، واستثمرت جزءا من موارد البلاد في مشاريع اقتصادية واسعة تدر على الكويت وأهل الكويت دخلا يقيها شر تقلبات

الزمان. ومع ذلك فإن حكومة الكويت لم تضن على العراق بالمال، وبدلا من أن يستثمر حكام العراق هذا المال فيما يعود على بلادهم وأمتهم بالخير، إذا بهم ينفقونه في شراء السلاح لضرب الكويت!! وهكذا ظل الكويت يتحمل الكثير، مما شكل عبئا ثقيلا عليه وعلى جيرانه من دول النفط العربية في شرق شبه الجزيرة، التي دأبت حكومة العراق على استنزاف مواردها في صورة بشعة تثير الإشمئزاز. ومع كل ذلك ظل الكويت ينهض بالتزاماته كاملة في دعم القضايا العربية وتقديم العون إلى العديد من الشعوب العربية والإسلامية، وبخاصة في قارتي إفريقية وآسيا.

وإذا نحن قارنا بين حجم دولة الكويت ومساحة العراق، فإن العراق يفوق في مساحته حجم دولة الكويت أربعا وعشرين مرة ولكن مشاعر الحقد والحسد والجشع تضافرت كلها مع الرغبة في التسلط والتطلع إلى الزعامة، فأخذ الذئب يتلمس ما اعتاد عليه من أعذار واهية لتبرير عدوانه على الحمل الوديع. ولم يستطع الذئب رغم أكاذيبه ـ أن يحجب نواياه الحقيقية في الرغبة في التسلط على كافة موارد النفط في إقليم الخليج، فاختلق الأعذار الواهية، لمهاجمة الأجزاء الشرقية من المملكة العربية السعودية، وهي أجزاء غنية بآبار النفط، وذلك تمهيدا لإقامة امبراطورية النفط التي يحلم بها، مما يمكنه لا من السيطرة على إقليم الخليج فحسب، بل على مصائر العالم في الشرق والغرب.

وفي الوقت الذي أخذت حكومة العراق تتمسح بالإسلام والعروبة، اقتحم الجيش العراقي أرض الإسلام والعروبة ليرتكب من ألوان البغي والمنكر ما يندى له جبين العروبة والإسلام.

إن للحرب رغم كل ما تتصف به من مساوىء ـ أدبها. وسلوك الجيش المحارب يعبر عن المستوى الحضاري للشعب الذي يمثله أو للدولة التي يرفع علمها. وقد قام العرب في ظل الإسلام بحركة فتوح واسعة امتدت من المشرق إلى المغرب، ولم نقرأ في كتب التاريخ أن هؤلاء المؤمنين حقا بالله وبرسوله، الفخورين بعروبتهم، اغتصبوا امرأة أو أحرقوا مرفقا أو ضربوا مدينة من المدن التي فتحوها، وإنما استولوا على المدن الخربة فعمروها وصار يشع منها نور الحضارة. وعندما استولى المسلمون على بيت المقدس عاهد الخليفة عمر أهل تلك المدينة على سلامة أرواحهم وممتلكاتهم، واحترم كنيسة القيامة وحافظ عليها[١٣]. ثم حدث عندما استولى صلاح الدين على نفس المدينة عقب موقعة حطين سنة ١١٨٧ م، (أن قال له أحد المتطرفين: لا إذا هدمت ونبشت المقبرة، وحرثت أرضها، ودمرت طولها وعرضها انقطعت عنها إمداد الزوار. . ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة. . .). ولكن صلاح الدين ـ بروح إسلامية ـ استنكر هذا القول وأمر باحترام القدس وكافة الأماكن المقدسة وغير المقدسة، ورد على القائل «عندما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام، أقرهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان!!»[١٤].

هذا هو منطق الإسلام والعروبة، وهذا هو سلوك المتحضرين وأصحاب الخلق والضمائر. وسيظل التاريخ يذكر أنه حدث في الحرب العالمية الثانية أن اقتحمت جيوش الألمان مدينة باريس، وعندئذ أمر هتلر ـ بمنطق الطغاة ـ قائده بإحراق تلك المدينة، ولكن القائد الألماني اعتذر عن عدم تنفيذ رغبة سيده الدكتاتور، وأعلنها على الملأ «إن مثل هذه المدينة لا يجوز أن تحرق» وبذلك خلد لنفسه ولجيشه وللشعب الذي ينتمي إليه حسنة في سجل الحضارة الإنسانية، رغم كل ما حلّ

بالعالم من ويلات على أيدي الألمان في تلك الحرب.

إن التاريخ لا يرحم ولا ينسى. وسيظل التاريخ يردد ما أتاه جيش العراق من أفعال منكرة على أرض دولة الكويت، وهي الدولة التي تعتز بهويتها كعضو في الأسرة الإسلامية العربية. ذلك أن جيش العراق لم يقف عند حد نهب المتاجر وهدم البيوت، بل تعدى ذلك إلى إهدار دماء الأبرياء وهتك أعراض المؤمنات وخطف المسالمين من بيوتهم ودورهم بدعوى أنهم أسرى حرب. فهل هذا هو الإسلام الذي يتمسحون به؟ وهل هذه هي العروبة التي يتاجرون بشعاراتها؟ كيف استباحوا لأنفسهم ارتكاب هذه الجرائم ضد شعب عربي مسلم تربطه بهم صلة الجوار ورابطة الإسلام. لقد قطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وعاثوا في الأرض فساداً، وبذلك حق عليهم قوله تعالى: «ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون فى الأرض، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار[١٥]».

نفهم أن حياة الحرمان التي عاشها شعب العراق سنوات طويلة في ظل نظام استبدادي، خلق في البلاد جواً من الإرهاب، وفرض عليها جواً اقتصاديا خانقا، مما دفع جيش العراق إلى إلامعان في السلب والنهب، وسرقة البيوت والبنوك والمحال التجارية. ولكن هل بلغ الأمر حد خطف أجهزة الفيديو من الهاربين في سياراتهم وأجهزة الكمبيوتر الخاصة بالأطفال، فضلا عن حلى النساء؟. وإذا كانت الرغبة في السرقة قد غلبت على الصناديد الشجعان، فهل كانوا محرومين من مباشرة نسائهم في بلادهم حتى استباحوا لأنفسهم فعل الفحشاء في النساء المحصنات على أرض الكويت؟ ثم لمصلحة من كان إشعال الحرائق في آبار النفط بالكويت؟ ومن المستفيد من هذا العمل الجبان؟ أليست هذه خسارة على أمة الإسلام والعروبة؟ إنها الرغبة في التدمير لمجرد التدمير. إنه الحقد الأسود والرغبة في التشفي. هذا ماسجله التاريخ.

وعندما يتابع المشتغل بالتاريخ ما فعله جيش العراق في الكويت في أواخر القرن العشرين، لابد وأن تقفز إلى مخيلته صورة ما فعله التتار بديار الإسلام منذ سبعة قرون. لقد اتصفت غزوات التتار في العالم الإسلامي بثلاث صفات أساسية: إشعال الحرائق والتخريب، السلب والنهب، هتك الأعراض. وهذه الصفات نفسها هي التي حرص عليها والتزم بها جيش العراق في هجمته الشرسة على الكويت.

يذكر ابن عربشاه أن تيمورلنك كان إذا اقتحم بلدا إسلاميا «أمر بالدماء أن تسفك، وبالحرمات أن تهتك، وبالارواح أن تسلب، وبالأموال أن تنهب، وبالعمران أن يخرب، وبالزروع أن تحرق، وبالضروع أن تخرق، وبالأطفال أن تطرح، وبالأجساد أن تجرح، وبالأعراض أن تثلم، وبالذمم أن تُسلمّ ولا تسْلَم، وأن يطوى بساط الرحمة، وينشر مسح النقمة، فلا يرحم كبير لكبره، ولا صغير لصغره، ولا يوقر عالم لعلمه، ولا ذو أدب لفضله وحلمه، ولا شريف لنسبه، ولا منيف لحسبه، ولا غريب لغربته، ولا قريب لقرابته وقربته، ولا مسلم لإسلامه، ولا ذميّ لذمامه، ولا ضعيف لضعفه، ولا جاهل لركاكة رأيه وسخفه. . .[١٦]».

أليست هذه صورة طبق الأصل لما فعله جيش العراق بالكويت وأهل الكويت؟؟

حقيقة إن حوادث التاريخ كثيرا ما تتشابه وإن كانت لا تتطابق.

الهوامش والمراجع

(١) إبن منظور: **لسان العرب**، مادة طغى .

(٢) **النازعات**: ١٧ .

(٣) **طه**، ٨٨ .

(٤) **آل عمران**، ١٥٩ .

(٥) Gierke : **Political Theories In the Middle Ages,** P:34.

(٦) Carlyle : **The Political Theory in the West,** P,P:143-145.

(٧) Poole **: Medieval Thought**, P,P: 210-216.

(٨) **الحاقة**، ٢٩ .

(٩) إبن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص١٨ .

(١٠) Stamp, L . D.:**Asia, An Economic and Regional Geography.**

(١١) **آل عمران**، ٦٤ .

(١٢) **سورة ص**، ٢٣

(١٣) تاريخ الطبري، **حوادث سنة ١٥هـ**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ج ٣، ص ٦٠٩ .

(١٤) أبو شامة: **كتاب الروضتين**، ج٢، ص١١٥، إبن الأثير: **الكامل**، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(١٥) **الرعد**، ٢٥ .

(١٦) إبن عربشاه: **عجائب المقدور في نوائب تيمور**، تحقيق علي محمد عمر، ص ٤٧ .